المنهجية في العلوم الإسلامية: مظاهر الأزمة ومفاتيح التجاوز

الدكتور كمال جديش
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية -قسنطينة

الحالة الراهنة للعلوم الإسلامية:

إن الناظر في حال العلوم الإسلامية اليوم وبعيدا عن كل أشكال المجاملة ومدح الذات، لا يحتاج إلى جهد كبير ليتبين الوضع غير المريح الذي صارت إليه، فبعد أن كانت تمد الأمة بأسباب القوة، وتحافظ على هويتها في وجه أشكال الإلحاق والتشويه، أضحت وقد تغير حالها و تضاءل دورها شيئا فشيئا، حتى حلت محلها منظومات أخرى مزاحمة لها على مواقعها الأصلية، إلى الحد الذي قلص بشكل كبير من دورها في التفاعل إيجابا مع قضايا الداخل أو الخارج، وهو ما خلف فراغا مثيرا للسؤال، من هذا المنظور أصبح طرح قضية أزمة العلوم الإسلامية في شتى مظاهرها أمرا ملحا، والتفكير في السبيل الأنسب لتصحيح مسارها وتقويم منهجيتها أكثر إلحاحا.

إن ما يطرحه صاحب هذه الورقة ينطلق فيه من رؤية بدأت تتبلور من خلال التجربة الميدانية في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، حيث غالبا ما تقابلنا حزمة من الأسئلة، بعضها عام مائع وبعضها خاص ودقيق، وهي في جملتها معبرة عن حالة الحيرة التي تصيب كثيرا من المهتمين والدارسين للعلوم الإسلامية، وهذه الحيرة في تقديري راجعة إلى غياب رؤية منهجية واضحة، وقد حاولت صياغة بعض الجوانب

من هذه الحيرة في صورة أسئلة وفق الغرض المتوخى من هذه الورقة، فإذا كانت الأمة قد تشكل وعيها وتاريخها وتكونت هويتها في نطاق الدين الإسلامي الحنيف، وبتأطير وتوجيه من علوم الإسلام، فإن ما لحق هذه الهوية من اهتزاز وصلت حد جعلها محلا للنقاش، بالإضافة إلى ما يهدد المجتمع في انسجامه وتلاحمه مرده في تقديرنا في بعض وجوهه إلى تردي حال العلوم الإسلامية بفعل تقصير حامليها، حيث يصبح طرح السؤال بشأن أداء هذه العلوم بصورتها الحالية لدورها الحضاري في الحفاظ على هوية الأمة أمرا ملحا، وفي هذا الشأن يمكن طرح جملة من الأسئلة الجزئية ذات الصلة بالموضوع بيانا لحدوده ورسما لمعالمه، ما هي أوجه القصور المعبرة عن الاختلال المنهجي في العلوم الإسلامية في صورتها الراهنة ؟ ما هي التحديات التي تواجه عملية التقويم المنهجي، وما هو المخرج، والبديل الذي يمكن تبنيه في إطار الحفاظ على هوية الأمة، وتقوية أركانها؟ وماهي البدائل المنهجية الممكنة التي باستطاعتها النهوض بالعلوم الإسلامية؟

المبحث الأول: بعض مظاهر الأزمة التي تعاني منها العلوم الإسلامية

إن الحديث عن الأزمة المنهجية في العلوم الإسلامية، يمثل وجها من وجوه الاستجابة للقناعة الشائعة القائلة بأن هذه العلوم أضحت تعيش أزمة متعددة الأوجه، صيرتها تعيش على هامش المجتمع، سواء في اهتماماتها، أو في مدى قوة خطابها الذي يفترض فيه أن يكون موجها للأمة، ومعبرا عن حاجاتها. فما مظاهر هذه الأزمة ؟

إن تتبع مظاهر الأزمة التي تعاني منها العلوم الإسلامية ليس بالأمر الهين، ذلك أن بعض هذه المظاهر يضرب بجذوره في التاريخ، ويصعب من ثمة تتبعه وتتبع آثاره، غير أن هذا لا يمنعنا من الإشارة إلى بعض هذه المظاهر تنبيها لا استقصاء، وتمثيلا لا حصرا، ومن بين هذه المظاهر التي نراها جديرة بالتنبيه عليها:

1- إقامة حاجز بين علوم الشريعة وسائر العلوم الأخرى، واعتبار العلم الحقيقي هو ما كان من قبيل الرواية وحسب، وإذا ما تم توسعة مدلوله وسع للدلالة على علوم الشريعة بمعناها الضيق الذي تبلور خلال عصور الضعف لا غير، ولو بقي الأمر عند هذا الحد لهان الأمر، بل إن كل هذا واكبه التنفير والتحذير من العلوم التي وصفت بأنها علوم الدنيا، وهذا ما أدى إلى زيادة الشقة بين العلوم، أضحت معه علوم الشريعة تعرف بأنها علوم الآخرة، والأخرى تسمى علوم الدنيا، وهي قسمة منافية لروح القرآن الكريم، الذي يجعل النظر في عالم السموات والأرض، والنظر في عالم الحيوان والنبات والطير موصلا إلى الإيمان، بل وطريقا مأمونا إليه، حتى إنه جعل النظر في النحل على ضآلة شأنه موصلا إلى اليقين برب العالمين. وقد كان لهذه التفرقة الخطيرة أثر سلبي لا ينكر في إضعاف العلوم الإسلامية، وجعلها تنحصر شيئا شيئا في قضايا جزئية، لتترك المجال لما سمي بعلوم الدنيا لتكتسح مساحاتها الأصيلة. ولم يقتصر الأمر في واقع الحال على تقسيم العلوم وشطرها إلى دينية ودنيوية، بل امتد ليصل إلى تحريم الاشتغال ببعض العلوم، بزعم تهديدها لعقيدة الأمة وتعريضها للضلال، والأمثلة على ذلك كثيرة، وأقربها قول أحدهم: "وأقل من النظر في النجوم إلا بما تستعين به على مواقيت الصلاة واله عما سوى ذلك فإنه يدعو إلى الزندقة"[1]، فعلى الرغم من أن قائل هذه العبارة يمكن تلمس العذر له في كون الناس في وقته اشتغلت بالنظر في النجوم

[1]- البربهاري، شرح السنة، الفقرة 90، ج1 ص 48، وقال بعد هذا في الصفحة 58:" فمن أقر بما في هذا الكتاب وآمن به واتخذه إماما ولم يشك في حرف منه ولم يجحد حرفا منه فهو صاحب سنة وجماعة كامل قد كملت فيه الجماعة ومن جحد حرفا مما في هذا الكتاب أوشك في حرف منه أو شك فيه أو وقف فهو صاحب هوى.

لمعرفة الطوالع[1] على حد زعمهم رجما بالغيب، إلا أن هذه الدعوة في أصلها مخالفة لدعوة القرآن الكريم الذي دعا إلى النظر في السموات والأرض في غير ما آية، والأمر يزداد سوءا عندما تستحضر هذه المقالة وأمثالها في التحذير من الاشتغال بمثل هذه العلوم دون مراعاة السياقات التاريخية التي أنتجت هذه المقالات، بل أحيانا رفعها إلى منزلة تعلو على النقد، إلى الحد الذي تصبح معه هذه المقولة ومثيلاتها حاكمة على القرآن الكريم. كل هذا ساهم في زيادة الفجوة بين العلوم الإسلامية التي لا يماري أحد في كونها علوما خاصة بالأمة، وسائر العلوم الأخرى التي تدخل في قسم كبير منها في دائرة المشترك الإنساني العام، كما ساهم في أحيان كثيرة في إشاعة العداء بين المشتغلين بالعلوم الإسلامية وبين العلوم الأخرى التي هي في نظرهم ليست شرعية[2].

2- وقوعها في التقليد حتى في أبسط الجزئيات، حيث أصبح التقليد يمارس على أوسع نطاق، واتخذ القياس مطية لذلك -ليس المقصود هنا القياس بالمعنى الأصولي- حتى صارت كل قضية جديدة تعرض للأمة إلا وتتم المسارعة إلى البحث عما يشابهها في الماضي بقصد استصحاب الحكم وإنزاله على القضية الجديدة، إلى الدرجة التي خرجت معها هذه الطريقة عن مجرد الاستئناس، إلى تحكيم تلك الحلول الماضية وتصييرها شرعا على الرغم من تطاول الزمن واختلاف الظروف. وهو ما جعل العلوم الإسلامية تتراجع وتتخلف عن مسايرة التحولات الحاصلة في المجتمع، و شاعت نظرا

---

[1]- كان القول بالأنواء شائعا في الجاهلية، فقد كانوا يقولون : مطرنا بنوء كذا، والنوء نجم في السماء، ولما جاء الإسلام نهى عن هذه الاعتقادات الباطلة

[2]- وهذا ما أفرز مشكلات منهجية كثيرة مثل التقابل بين الطب النبوي والطب التجريبي، وتحديد بداية الشهور الهجرية هل يتم باعتماد الحساب الفلكي أم بالعين المجردة، وهكذا وهلم.

لذلك العقلية القياسية الاستنباطية على حساب العقلية الاستقرائية التي من شأنها تتبع ما يحدث في المجتمع ووزنه بميزان الشرع وتقويمه بأحكامه[1].

3- التكرار: يمكن عد وقوع العلوم الإسلامية في آفة التكرار واحدا من مظاهر أزمتها، وهي آفة يمكن ملاحظتها فيما يكتب وما يدرس، فكثيرة هي المسائل المكررة بصيغ مختلفة، فم يعد التكرار مقتصرا على المسائل، بل تعداه إلى الأمثلة والنماذج الجزئية، حتى أصبحت الأمثلة التي تساق في الفقه أو في الأصول أو في غيرهما أمثلة واحدة يعاد عرضها منذ قرون بطريقة مدرسية مملة، حتى ليخال الدارس نفسه منتميا على الحقيقة لتلك القرون السالفة، والأمثلة على ذلك كثيرة، ويمكن التماسها في كل فرع من فروع هذه العلوم، وهذا ما نحسبه يعجز عن تكوين الملكة العلمية ويفشل في إعداد العالم الحقيقي المندرج في قضايا عصره ومشاغل أمته. وإذا كان التكرار أدى وظيفته تمشيا مع حاجات الأمة في وقت من الأوقات، فإن هذا التكرار أصبح مرضيا خاصة حين ساهم في جعل الأمة تركن إلى سكون رهيب في مختلف جوانب الحياة، وهو سكون توقف معه الإبداع في كل شيء، ومن ثم فإن بقاء هذا التكرار طاغيا على العلوم الإسلامية في الوقت الذي تشهد فيه الأمة حراكا كبيرا يعد إشعارا بعدم تقدير الموقف كما ينبغي، وانسحابا ليس مبررا واحتماء بالماضي ليس مجديا.

---

[1]- العقلية القياسية تفترض ضمنا أن الحياة رتيبة، وأن التغير يمس الجزئيات فقط، مع أن التغير على المستوى الكلي واقع لا محالة، وهو يولد فوارق جوهرية تجعل من القياس على مستوى الجزئيات أمرا غير مأمون.

المبحث الثاني: مبررات الدعوة إلى التجديد المنهجي في العلوم الإسلامية

لعل ما سبق تناوله عند الحديث عن بعض مظاهر الأزمة في العلوم الإسلامية مبرر كاف للدعوة إلى تجديد المنهج في العلوم الإسلامية[1]، غير أن ذلك لا يمنع من طرح بعض المبررات الأخرى من جديد على سبيل التمثيل لا الإحاطة وذلك فيما يأتي:

1- تخلف العلوم الإسلامية بصورتها الراهنة عن الاستجابة لاهتمامات المجتمع وعدم إدراك حامليها لحاجاته، وهذا ما جعل قطاعات واسعة في المجتمع تلتمس حلولا لمشاكلها خارج منظومة العلوم الإسلامية[2]، بل ولا تحدد خياراتها طبقا للإسلام ذاته، وبقي ارتباطها بالإسلام ارتباطا عاطفيا وحسب،[3] يبعد بها عن اللقاء بأحكام الدين لقاء عمليا فاعلا، وهو ما يجعل إعادة النظر في مناهجها أمرا ضروريا، وهذا حتى يمكن الدفع بها إلى معترك المجتمع لتقوم بوظيفتها على الوجه اللائق، إنقاذا للأمة من أشكال الضياع التي تتهددها.

2- تخلف العلوم الإسلامية عن التموقع ضمن الخريطة المعرفية في الأمة في الواقع الراهن، بله أن تتموقع في المنظومة المعرفية العالمية، ذلك أن ما تحتله من مواقع

---

[1]- بعض الدعوات المتطرفة تنكر على العلوم الإسلامية دعوتها إلى المنهجية على اعتبار أن العلوم الإسلامية هي من قبيل الفكر الديني، والفكر الديني يستعصي على المنهج، فالمنهج بناء عقلي بينما الفكر الديني يجافي العقل ويرفضه، وهي دعوى مؤسسة على رؤية محددة للعلاقة بين الدين والعلم، فحين يكون الدين ليس معقولان عندها تصح هذه المقالة.

[2]- ذلك أن التطور الحاصل في أنماط النشاط الإنساني بصورة عامة أفرز أنماطا من التنظيمات صعب على القائمين على العلوم الإسلامية مجاراتها مثل تنظيم العمل، نقابات العمال، حقوق العمال، الضمان الاجتماعي.

[3]- هذا الارتباط العاطفي انجر عنه قصر التدين على الشعائر التعبدية وحسب.

رمزية، لا يتجاوز إطارها التقليدي، بحكم اشتغالها في أغلب الأحيان على موضوعات تراثية مكرورة صلتها بالراهن ضعيفة إن لم تكن منبتة أصلا[1]، حتى أصبح المشتغل بهذه العلوم يعيش غربة متعددة الأوجه، فلا هو تمكن من الانخراط في منظومة المعرفة العالمية، بحكم التحوط في التواصل بكل ما له صلة بالدين في الجملة، ولا هو استطاع أن يقترب من التراث اقترابا صحيحا بعيدا عن كل أشكال التزييف والتشويه[2]، وبعيدا عن كل أشكال الاستلاب والاستسلام، وليس يعسر على كل متتبع أن يجد الأمثلة الساطعة أمامه دون أدنى جهد، ولعل أقرب مثال إلينا هو جملة المواضيع التي يتم بحثها في الجامعات والكليات الإسلامية، حيث إن أغلبها يدور حول قضايا حدثت منذ قرون متطاولة، وفائدتها على المجتمع تكاد تنعدم إن لم تكن منعدمة فعلا[3]، فما يفيد المجتمع هو تتبع قضاياه ومعالجتها كما فعل الأوائل من علماء المسلمين، حين توسعت عندهم دائرة الاشتغال بواقع الأمة، فراحوا يتتبعون مشاكلها بمنهج استقرائي فريد، بينما واقع الحال عندنا اليوم هو توسع دائرة البحث في التراثيات على حساب مشاكل الأمة

---

[1]- المقصود هنا راهن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وما تتطلبه من توجيه وتنظيم.

[2]- الاقتراب الصحيح هو الاقتراب القائم على التواصل الإيجابي، بما يتضمنه من تقويم وتقدير وما يترتب عنه من قبول وتبني وتعديل وإلغاء، بمعنى التعاطي معه على أنه يمثل اجتهادات محكومة بظروفها، ومن ثم لا يكون سلطان التراث قائما على الهيمنة على الحاضر.

[3]- مثل الاشتغال بالرد على بعض الفرق التي لم تعد توجد إلا في رؤوس المشتغلين بالرد عليها، أو مثل إحياء البحث في صفات الله عز وجل لا على المعنى الذي يورث معرفة بالله تعالى، والخوف منه، وإنما على معنى الانتصار لمذهب على مذهب آخر، وهو ما يساهم في إحياء الخلافات التي دفنت في التاريخ، كل هذا يتم الاشتغال به بلغة تراثية تحال المتحدث بها وكأنه يحي في تلك الفترة بالذات، وبذلك أصبح القاموس اللغوي المستخدم في مثل هذه الردود قاموسا لا يمت بصلة إلى لغة المجتمع الإسلامي المعاصر، ويقابل ذلك الغفلة عن المنظومات الفكرية التي تتحكم في مصير الإنسان والعالم،

الآنية، وأغلب مشاكل الأمة التي ينظر فيها المشتغلون بالعلوم الإسلامية تتم معالجتها بمنهج استنباطي يكتفى فيه بتخريج الفروع على الأصول دون أي اعتبار للواقع المتغير الذي لا يثبت على حال. إن إنكار قيمة تلك الأبحاث التراثية ليس أمرا مرغوبا لكن المطلوب هو أن تأخذ حجمها الطبيعي.

3- إن الأمة وإن كان وعيها بالقضية أقل مما يجب، إلا أن هذا القليل من شأنه أن يحرك فيها داعي الانبعاث، بعدما أصبحت تستشعر مخاطر الفراغ الذي تعانيه في مواجهة قوة الثقافات الغازية، حيث أصبح يسمع نداء التوجه إلى العلوم الإسلامية بوصفها ملاذا، إلى الحد الذي يجعل التقصير في التعجيل بإجراء المراجعات اللازمة ينطوي على مخاطرة كبيرة، زيادة على كونه تخليا عن المسؤولية تجاه الأمة.

المبحث الثالث: عوائق التجديد المنهجي في العلوم الإسلامية

إن عوائق التجديد المنهجي في العلوم الإسلامية وجعلها في مقام الاستجابة لحاجات المجتمع، وتمكينها من أخذ مكانتها في المنظومة المعرفية داخل المجتمع كثيرة ويمكن أن نشير إلى بعضها منها:

1- غياب الإدراك السليم لطبيعة المشكلة ذاتها، بل وأحيانا عدم الاعتراف بها أصلا، حيث يقابل كل من يدعو إلى تجديد المنهج في العلوم الإسلامية أحيانا بسيل من الاتهامات المبنية على الأحكام القبلية، والسبب في ذلك يعود إلى الشعور بالرضا الزائف والطمأنينة المغشوشة التي تغطي في واقع الحال عجزا يصعب نكرانه أو تبريره[1]، مع الإشارة إلى أن هذا الوصف لازال سمة غالبة على المشتغلين بها، فهذا الشعور بالرضا

[1]- قد يكون ذلك نابعا من الخلط بين كمال الشريعة في ذاتها، والإيمان بوفائها بكل حاجات الإنسان وتطلعاته الصحيحة، وبين طبيعة علاقة المسلمين بها، وما يشوبها من ضعف وفتور، وتغييب القاعدة التي تنص على أن " كمال الهداية لا يعني كمال الاهتداء".

الزائف أدى إلى التغطية على كل محاولة لإدراك الوضع على حقيقته، وقد عن نتج هذا توجس من كل دعوة للتجديد والإصلاح والريبة في أصحابها والطعن عليهم، والتشكيك في نواياهم، وليس خافيا ما تعرض له دعاة الإصلاح من تشويه وتحذير من خطابهم، والنماذج على هذا كثيرة، ومن ذلك ما كان يرمى به ابن باديس مثلا من قبل خصومه بمعاداته للسنة، وقبله حدث الأمر نفسه لمحمد عبدو حين استحضرت مصطلحات تراثية لتوصيف مجهوده الإصلاحي، فقيل عنه إنه معتزلي ما دام يجعل للعقل مكانا في مشروعه، والأمر نفسه أيضا حدث مع جمال الدين الأفغاني.

2- الاعتناء بالشكلانية على حساب الجوهر، ذلك أن سائر العلوم الإسلامية يراد إحياؤها ولكن في صورتها القديمة التي يقتصر فيها على استحضار النماذج التراثية، حيث تحصل القناعة الزائفة بأن الاستئناس بالنماذج القوية يجعل من هذه العلوم قوية في وقتنا هذا، ومن ذلك أن الحديث عن بعث علم العقائد مثلا يستحضر نماذج تراثية لا ليعرف منهجها قياسا إلى واقعها بل ليجعلها هي نفسها الناطقة بلسان علم العقائد في هذا الوقت، فيؤدي ذلك إلى بعث الجدل حول قضايا ميتة، بل ويمتد أثر ذلك إلى ما هو أبعد وأخطر، ألا وهو الحكم على عقائد الناس طبقا لهذه المقولات التراثية الجاهزة التي تم استدعاؤها من الماضي، ولا يخفى أثر ذلك كله على الأمة في حاضرها ومستقبلها، والأمر نفسه أيضا فيما يتعلق بعلم المقاصد حيث أصبح الحديث الدائر حوله أكبر جهده أن يكرر ما طرحه الجويني و الشاطبي وابن عاشور، وهذا دون أن نغمط بعض الجهود حقها خاصة تلك المحاولات التي تظهر هنا وهناك بغية مد علم المقاصد بدماء جديدة تجعل منه جسرا يربط بين سائر علوم الشريعة، وتنتقل به من مجرد كونه مقاصد للأحكام الشرعية إلى رتبة كونه بحثا في مقاصد الدين على الجملة.

وما ينطبق على علم العقائد وعلم المقاصد ينطبق على سائر فروع العلوم الإسلامية بدرجات متفاوتة.

3- جل الجهود الموجهة لبعث العلوم الإسلامية واقعة تحت طائلة الشد والجذب بين المستلبين تراثيا والمستلبين حداثيا، فكثير ممن اقتنع بضرورة البعث وما يصاحب ذلك من مراجعة، عند فحص مسلكه الذي اتخذه في هذه العملية، نجده لا يخرج عن هذين، وبيان ذلك كالآتي:

أ- **المستلب التراثي:** وهو في أصل حاله يرى أن التجديد المنهجي في العلوم الإسلامية بمعنى جعلها مسايرة لحركية الحياة هي مجرد مؤامرة تحاك ضد هذه العلوم، وهو موقف ينطلق من حال الرضا عن الذات، وهو كما سبق الحديث عنه مجرد رضا زائف، وإذا ما سار في اتجاه البحث عن البديل المنهجي قصر ذلك على معنى إحياء التراث ونفض الغبار عنه، وتجديد ما اندرس منه، وشعاره في ذلك: الخير كل الخير في اتباع من سلف والشر كل الشر في اتباع من خلف، ناسيا أن اتباع السلف إنما يكون في اتباع منهجهم وسلوك طريق الجد الذي سلكوه، فيصبح البديل عنده ليس أكثر من التنظير لإشاعة تقليد الآباء، وليس أكثر من استدعاء الصور القديمة ليغطى بها العجز في الصور الجديدة، بل وتشويه هذه الصور القديمة أحيانا عندما يضفي عليها من اهتمامات الواقع المعاصر ما لا تحتمله. والناظر في حال هذا الصنف يجده يرفض عملية التجديد إذا كانت تشوش عليه سكونه، وكل الأسئلة التي تطرح بشأنه هي بالنسبة إليه أسئلة لا مسوغ لطرحها، وهو في كل هذا يصدر عن خوف غير مبرر على التراث، وخوف على الأمة من الضياع إذا هي اشتغلت بكثرة السؤال، أو بالأحرى هي صورة للاحتماء بالتراث وليس حماية له. و هذا الصنف هو في نهاية المطاف يعبر بموقفه هذا عن احتكار الحقيقة وجعلها محصورة في دائرة تفكيره الضيقة، وبالتالي فطريق التجديد

في العلوم الإسلامية بالصورة التي يريدها هذا الجناح لا يمكنها أن تستجيب لحاجات الأمة، ولا أن تحدث التغيير المنشود.

ب- المستلب الحداثي: وهو وجه آخر من وجهي الاستلاب والتقليد، فإذا كان الأول مستلبا من قبل تراث أمته، فإن الثاني مستلب من قبل تراث وثقافة أمة أخرى، وإذا كان الأول مقلدا لآبائه، فإن الثاني مقلد لآباء الآخر المخالف، وتقليده هذا جعله ينظر إلى تراث الماضين من أبناء ملته على أنه لا يستحق أن يلتفت إلى أي جزء منه إلا ما كان منه متفقا مع منجزات الحداثة. وفي هذا السياق ظهرت قراءات جديدة للتراث الإسلامي، قراءات لم تراع السياقات التاريخية التي كتب فيها، وإن كانت ترفع هذا المبدأ، غير أن هذه القراءات لم تقف عند هذا الحد، بل تجاوزته إلى عد القرآن الكريم والسنة النبوية من قبيل التراث الذي يمكن أن تطبق عليه آليات القراءة المطبقة على سائر النصوص البشرية، ولا يخفى ما في هذا من إهدار لقيمة القراءة ذاتها، وإهدار لقيمة النص القرآني والنبوي. والناظر في حال هذا الصنف يجده في واقع الأمر قد أسس موقفه على الرفض المبطن للدين وللنصوص التي بني عليها، ولتراث الأمة جملة، وهو موقف حدي لا يصلح منطلقا للبناء، وهو أيضا مثل سابقه مبني على احتكار الحقيقة وجعلها تدور في فلكه حيث دار.

4- افتقادها إلى المؤسسات التطبيقية، ذلك أن اجتهادات المشتغلين بهذه العلوم تبقى حبيسة الأدراج، وهذا من شأنه أن يعرقل حركيتها ويبعدها عن التفاعل مع المجتمع كما ينبغي، ومن ثم يبقى تطورها بطيئا، وبالتالي استجابتها لحاجات المجتمع متأخرة إلى حد كبير أيضا، ذلك أن محك العمل هو الذي يمكنه أن يمحص هذه الاجتهادات، ويفتح أبوابا جديدة للنظر.

المبحث الرابع: البديل المنهجي المقترح للخروج من الأزمة

لعلنا نكون قد استشعرنا قسما من جوانب المشكلة المتشابكة الخيوط، ولعل إدراك جانب من هذه المشكلة يعد بالأساس سبيلا للبحث في البدائل الممكنة، وفي هذا المقام يمكن التأكيد على بعض العناصر التي ينبغي أن يشتمل عليها أي بديل يطرح، وهذا ما دام البديل المتكامل الخيوط في نظرنا لم ير النور بعد، ومن جملة العناصر التي نراها مهمة لتجد مكانها في البديل المنشود ما يأتي:

1- **نموذج معرفي جديد:** إن منظومة المعرفة الإسلامية القائمة وما تعانيه من تخلف في مضمار الحياة، يحتم البحث في نموذج معرفي بديل قائم على رؤية واضحة، وإقامة منظومة جديدة مبنية على أسس راسخة من القرآن الكريم والسنة النبوية، ومراجعات متأنية ورصينة للتراث الإسلامي، ونحسب أن هذه المنظومة الجديدة من شأنها أن تصحح الوضع و تقضي على كثير من النقائص التي لحقت المنظومة القائمة لظروف تاريخية معلومة وأهم هذه النقائص؛ الازدواجية والانشطار في منظومة المعرفة، والفهم غير السليم لمدلول كلمة العلم، فالمنظومة المنشودة يجب أن تكون معبرة عن وحدة الإنسان، وعن وحدة فطرته، وبالتالي ربط الصلة بين مجالات المعرفة المتاحة للإنسان. وربما يكون من المجدي الحديث عن نموذج إرشادي جديد في المعرفة لا مكان فيه لمعرفة إسلامية وأخرى غير إسلامية، بل تصبح كلها إسلامية شرعية ما دامت صادرة عن الامتثال للأمر الإلهي بالنظر والتدبر في كل الكائنات بدءا بالإنسان وامتدادا إلى أعماق السموات والأرض، وعدم الاكتفاء في ذلك بالخبرة وإنما مجاوزتها إلى العبرة، عندها تصبح العلوم الإسلامية موطدة لأركان المعرفة الحقة والعلم الحق، ومثبتة لأركان الأمة ومحافظة على هويتها.

2- إن هذا النموذج المعرفي ينبغي أن يعيد النظر في معنى العقل وفي دوره في المعرفة والوصول إلى الحقيقة، ذلك أن الرؤية الفلسفية اليونانية أصابت قطاعا واسعا من الثقافة الإسلامية بلوثة صعب الخلاص منها وذلك حين أوحت إلى المسلمين بأن الميتافيزيقا يمكن إدراكها بالعقل، فكان بذلك تأثيرها سلبًا على الحركة الطبيعية للعقلية الإسلامية.

3- إن النجاح في التأسيس لمنظومة معرفية إسلامية جديدة قادرة على إزالة أوجه التناحر الداخلي داخل الثقافة الواحدة يتطلب عدة أخلاقية، زيادة على العدة المعرفية والمنهجية، ونقصد بالعدة الأخلاقية هنا الالتزام الأخلاقي المشفوع بالرسالية القائمة على إخلاص النية، ذلك أن الافتقار إلى الأخلاقية يجعل من المهمة خالية من المعنى، وافتقارها إلى الرسالية يعرضها للفشل الآجل.

4- إن من أهم العناصر التي نراها مهمة في البديل المنشود هو الهضم والتمثل لما ينتجه الآخر بعيدا عن كل أشكال المتابعة والتقليد[1]، وذلك هو شرط الإبداع، أما القصد إلى الإبداع مع عدم التحرر من التقليد والإتباع، فهو مطلب معارض لطبيعة الأشياء، سواء كان هذا التقليد والإتباع للأجداد أو تقليدا لثقافة الغرب، فهو تقليد على كل حال، وإذا أردنا أن نسمي الأشياء بمسمياتها قلنا إن البديل المنهجي المنشود لابد أن يكون متحررا من سلطان الرؤية الغربية الحداثية والما بعد حداثية.

5- إن البديل المنهجي المنشود لابد أن لا ينجرف وراء البحث في الجزئيات، ذلك ان الجزئيات يمكن أن تندرج في المنظومة الأصلية المتكاملة.

---

[1] – طه جابر العلواني، نحو منهجية معرفية قرآنية ط1 دار الفك، دمشق 1430هـ /2009م ص 312

خاتمـــــة:

إن استشعار الأزمة هو في حد ذاته خطوة على الطريق الصحيح من أجل إيجاد الحل السليم، والعلوم الإسلامية بصورتها الراهنة وإن كانت متخلفة عن القيام بدورها الصحيح في القيام بحماية الأمة، إلا أن كونها منبنية على الوحي الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، يجعلها متهيئة دوما، إذا كان المشتغلون بها مدركين لطبيعة التحدي الذي يواجه مجتمعهم، ولعل أهم شيء يسارع إليه هو إصلاح منظومة المعرفة الإسلامية في مختلف جوانبها، وذلك عن طريق طرح الأسئلة الحقيقية، والسعي للإجابة عليها.

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله، وصحبه وسلم تسليما